م4: الماركسية

1ــ المؤسس "ماركس":

ولد كارل ماركس سنة 1818 في مدينة تريير بروسيا في عائلة ميسورة ومثقّفة، حيث كان أبوه محاميا من أصول يهودية ثم أصبح بروتستانتيا. درس ماركس بروسيا، ولما أنهى تعليمه الثانوي دخل جامعة بون ثم التحق بجامعة برلين، حيث درس الحقوق ثم تخصص في التاريخ والفلسفة، فقدّم أطروحة حول فلسفة أبيقور. إلى غاية هذا التاريخ تبنى ماركس مفاهيم المثالية الهيجلية، حيث انضم إلى حلقة "الهيجليين اليساريين" التي ترأسها برونو باور، والتي عمل روادها على تحصيل استنتاجات إلحادية ثورية.

عندما سيطر النظام الرأسمالي على العالم، أذن بميلاد المذاهب الاشتراكية المعارضة والمحاربة له، لكنها كانت اشتراكية بدائية، فلم تكن قادرة على تقديم حلول حقيقية للتخلّص من العبودية المأجورة التي رسّخها النظام الرأسمالي، لذلك لما جاءت فلسفة ماركس كانت "مادية فلسفية كاملة، أعطت الإنسانية، والطبقة العاملة بخاصة، أدوات جبارة للمعرفة"[1].

ألّف ماركس كتابه الشهير "رأس المال" الذي كرّسه لدراسة النظام الرأسمالي، ولما التقى برفيق دربه إنجلز في باريس، شرعا في النداء إلى الثورة وتحفيز الجماهير البروليتارية، وحاربا معا مختلف نظريات الاشتراكية البرجوازية الصغيرة، وصاغا في النهاية نظرية وتكنيك الاشتراكية البروليتارية الثورية أو الشيوعية (الماركسية). صدر لهما أهم كتاب وهو "البيان الشيوعي" الذي ما يزال تحتفي به إلى اليوم الطبقات البروليتارية والعمال، والحقيقة أن فكر ماركس اجتمعت ثلاثة مصادر في صياغته وهي: الفلسفة الألمانية، الاقتصاد السياسي الإنجليزي، والاشتراكية الفرنسية.

---

[1] : مجموعة من المؤلفين: عرض موجز للماركسية، ص50.

2ــ الفلسفة الماركسية:

إن النظر إلى الماركسية من حيث هي فلسفة، أي من خلال النظر إليها على أنها تجيب وتقدم حلول لمسائل تواضع عليها القدماء على أساس أنها فلسفية، فإنه يمكن أن نتحدث عن قضيتين أساسيتين[1]:

ــ القضية الأولى: هنا الأمر يتعلق بالمنهج أو بطريقة استعمال العقل، حيث أسس هيجل بداية الطريق للماركسية قبل ظهورها، ثم تبع ماركس هذا المنطق الهيجلي، حيث أسس الطريقة الدياليكتيكية.

فيما يخص هذه النظرة الجدلية، التي بني عليها منهج التفكير الماركسي وقبله منظور هيجل، فلقد انبثقت من النظر إلى سبيل أو منهج تحصيل المعرفة. قد شاع أن سبيل المعرفة دائما مبني على مناقضة الآراء المخالفة، ولقد تبنى الكثير من الفلاسفة والناس العاديين هذه النظرية، وحين حاولوا تبريرها، صرحوا بأن "هذه النظرية تنسب التناقض بين الأفكار إلى نقص في هذه الأفكار، لأن فكر الإنسان يظل في نقص مهما سما إلى الكمال"[2] ، ولما تدخل الفكر الماركسي لمعالجة القضية، وبعد أخذ ورد، في الأخير أقر أن "الفكر الإنساني يبحث عن الحقيقة من خلال المتناقضات، وإن لهذه المتناقضات معنى موضوعيا، وأساسا في الواقية...، وهذا يفضي بنا إلى الملاحظة بأن طريق التفكير القديمة يجب أن تعمّق وفاقا لنظرية المتناقضات، وما يخص الجدلية الثنائية لمنطق الأشياء. ونحن إذا قررنا، على نحو

---

[1] : ينظر: هنري لوفابر: هذه هي الماركسية، ترجمة محمد عيتاني، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 1952، ص26.

[2] : المرجع نفسه، ص28.

راسخ أن الحقيقة والموضوعية يجب أن تكونا هدفين للعقل، قررنا عندئذ مبدأ العقل المعمق، العقل الديالكتيكي"[1].

ــ القضية الثانية: سعى هيجل إلى كتابة تاريخ شامل للوعي الإنساني، وتجلى جهده في مؤلفه "ظواهر الفكر"، ولما جاء ماركس أوضح جليا جهود هيجل وسعى إلى الاحتفاظ بفكرة خاصة وهي فكرة "الانحطاط"، فجعلها نظرية واضحة المعالم.

انطلق الحديث في هذه القضية من مسألة صعبة متعلقة بالعلاقة بين العنصر الإنساني والعنصر اللاإنساني، فبحث هيجل في القضية مطولا، لكن ماركس لما أتى أعطى لها معنى ديالكتيكيا إيجابيا، حيث اكتشف ذلك التناقض الموجود في ذواتنا، "ولقد جاء الديالكتيك يشرح هذه الحقيقة ويرفعها إلى مرتبة الحقائق العقلية الثابتة، وما كان بوسع الإنسان التطور فعلا من خلال المتناقضات: أي أن العنصر الإنساني ما كان بوسعه أن يكون إلا في صلب العنصر اللاإنساني ومن خلاله، فيكون في بادئ الأمر مختلطا به، لكي ينفصل عنه بعد صراع طويل ويسيطر عليه في نهاية الصراع المقدر فيه الانتصار للإنسان"[2]، فلم يبلغ الإنسان فكرته عن الحرية إلا من خلال صراع طويل مع العبودية، وهذا ما يحتّم على الإنسان في كل مرة القضاء على العناصر اللاإنسانية ما يعني الابتعاد عن عناصر الانحطاط.

3ــ نظرية الأخلاق الماركسية:

لقد سعت الماركسية بداية إلى انتقاد النظريات الأخلاقية السابقة، قبل أن تطرح نظرتها في الموضوع، فلقد لاحظت الماركسية أن النظم الأخلاقية السائدة قبلها كانت نظما لاهوتية أو غيبية، حيث كانت تدين كل عنصر يخرج عن المألوف في اتجاه نحو تثبيت المجتمع

---

[1] : المرجع نفسه، ص31.

[2] : المرجع نفسه، ص47 ص48.

وترسيخ شموليته، ولقد كان لهذا التوجه الأثر السلبي على الأفكار العبقرية الجديدة، وهذا ما جعل من الأخلاق آلة ردعية في الجهة التي تخلق هذه الأخلاق ووسيلة لتبسط سيطرتها عليها.

انطلاقا من هذه الملاحظة، راحت الماركسية تدعوا إلى "ضرورة خلق مناقب جديدة، متحررة من جميع مظاهر الانحطاط الأخلاقية، والأوهام الأيديولوجية. وهي ترفض أن تضع قواعد أخلاقية خارج حدود الواقع، بل إنها تبحث في الواقع عن أساس لقمها الأخلاقية"[1]، ومن هنا راحت الماركسية تسند إلى طبقة البروليتاريا من ضمن جميع الطبقات المشكّلة للمجتمع دور القضاء على الانحطاط الأخلاقي، لأنها الطبقة التي تعمل وتسعى إلى تحرير ذاتها وتحرير المجتمع. وذلك بأن تخلق قيمها الخاصة التي تعبّر من خلالها على التمرد على السائد والمسيطر، بأن تثور مثلا على ما كان يطلق على العامل من قبل الطبقة المسيطرة بأنه "رجل صالح"....

4ــ المادية التاريخية:

لقد أقر العديد من المفكرين أن "علم الاجتماع أو السوسيولوجيا قبل الماركسية لم يكن علما"[2]، حيث إن النزعة المثالية كانت هي المسيطرة على هذا البحث في هذا المجال، وهو الأمر الذي عابته الماركسية على هيجل وأتباعه الذين فهموا المجتمع فهما مثاليا، حيث ظنوا أن الأفكار هي التي تسيّر المجتمع، وهذه الأفكار تنبع من الشخصيات المرموقة والقيادية، أي أنها هي التي تخلق التاريخ، متناسين دور الطبقة الشغيلة والجماهير في التطور التاريخي[3].

---

[1] : هنري لوفابر: هذه هي الماركسية، ص68.

[2] : ق. إفانا سييف: أسس الفلسفة الماركسية2، ترجمة عبد الرزاق الصافي، دار الفرابي، ط1، بيروت، لبنان، ص151.

[3] : ينظر: المرجع نفسه، ص152.

لقد اكتشف كل من ماركس وإنجلز عوامل تطور المجتمع واستطاعا أن يتغلغلا فيه، عبر تأسيسهم لنظرية "المادية التاريخية" القائمة أساسا على الإقرار بأنه توجد مصادر مادية تتحكم في الأحداث التاريخية، ليضعا جانبا بهذا الطرح النزعة المثالية التي لطالما سيطرت على علم الاجتماع، حيث أقر ماركس بأولوية الوجود الاجتماعي وثانوية الوعي الاجتماعي، ليطرحوا بذلك أهم مصطلح في المجال وهو "التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية"، مقرين في الأخير أن الجماهير هم في الحقيقة صناع التاريخ.

5ـــ الاقتصاد الماركسي:

كان نقطة انطلاق النموذج الاقتصادي الماركسي، هي انتقاد النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي كان مسيطرا، وهو ما يتجلى في مؤلف ماركس "رأس المال"، حيث قال في جزئه الأخير بأن هذا النظام "يريد إخفاء المصدر الحقيقي لكسب الرأسمالية، وهو فضل القيمة، أي الجزء المقتطع من جهد العامل"[1]، في إشارة واضحة إلى استغلال هذا الأخير، وترسيخ التفاوت الطبقي.

انطلقت الماركسية من هذا النقد للتأسيس لنظام اقتصادي بديل للنظام الرأسمالي، وهو النظام الشيوعي الذي قام أساسا على إعادة "العمل صفته الاجتماعية الحقيقية، وقيمته العينية، وهي صفة لا يمكن أن يفقدها العمل، ولكنها كانت تصارع حتى اليوم، الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، بعد أن جرها تناقضها إلى هذا الصراع المحتوم"[2]، ولم يأت هذا إلا كنتيجة لرد الاعتبار للطبقة البروليتارية، والتي لا يمكن أن نتحدث عن وسائل الإنتاج دون الاهتمام بها، لأنها المحرك الحقيقي للاقتصاد، وذلك لا يتأتى إلا بتحقيق الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج.

---

[1] : هنري لوفابر: هذه هي الماركسية، ص120.

[2] : المرجع نفسه، ص121.

6ــ السياسة الماركسية:

على الصعيد السياسي أيضا، كانت مواقف الماركسية مبنية بداية على نقد النظام السياسي الذي أرسته الرأسمالية، وهو "النظام التطوري المؤدي إلى تثبيت المراكز السياسية وفصلها عن المحسوس، عن المجتمع، كان يرافق خلال التاريخ، تقسيم العمل، وفصل العمل المادي عن العمل العقلي الفكري، ونشوء الملكية الخاصة، وتكوّن الطبقات الاجتماعية"[1]، لترسّخ بهذا الطرح في كثير من الأحيان وعبر التاريخ وراثة المناصب السياسية، أو ربط هذه الأخير بأشخاص ذوي ثروة، ما يعني هيمنة طبقة معينة، وهذا ما يؤدي غالبا إلى استبعاد المواهب والقدرات....

إن النظام الذي سعت السياسي الذي سعت الماركسية إلى تحقيقه، قائم أساسا على تسليم أمور الدولة للشعب أي للطبقة البروليتارية، ذلك أنه الشعب وحده هو أدرى بمصلحته وهو من يجب أن يتحكم بزمام الأمور للسعي وراء تحقيقها، وهذا لا يتأتى حسب أنصار هذا النظام إلا بزوال الوظائف السياسية وإرساء ــ بدلا عنها ــ وظائف إدارية يتسلمها الأفراد الأكثر كفاءة وموهبة، "وهكذا تزول الدولة بوصفها دولة، وهذا لا يعني أنها تنحط بل أنها تفنى في المجتمع بزوال الوظيفة السياسية"[2]، لأن الدولة هي وسيلة لإخضاع المضطهدين ووسيلة لترسخ التفاوت في المجتمع، أما إلغاؤها فهو في الحقيقة اتجاه نحو زوال مبدأ البناء الطبقي.

---

[1] : المرجع نفسه، ص135.

[2] : المرجع نفسه، ص 135.